

حياة الأمم بالعلم

اطلعنا على خطبة بليغة لأحد رؤساء مجمع تقدم العلوم الأميركي تلاها في اجتماع ذلك المجمع الأخير جعل موضوعها لزوم البحث العلمي لحفظ كيان الأمة وكان فيها ما خلاصته إذا شئت الأمة الأميركية أن لا تموت وتلتأمي وجب عليها أن تزيد قوة وكفاءة اجتماعياً وصناعياً وسياسياً وإذا شئت أن لا يعتدي عليها غيرها ولا تُغل بلها بتعرض الأجانب لها أو تسلطهم عليها فالواجب أن لا تُدرك ولا تُترك لهورها لتصاريف الزمن ولهذا السلم الذي ليس له مباح مبيع من القوة

فقد رأينا أن أوربا ماسكة بمعضها بجناح بعض التجال وتغافل كلتها الوحوش الفاربة لا تحجم عن قتل ولا عن غريب ولا تأخذها رافة ولا شفقة حرب غروس ونار آكلة وقودها الرجال والاموال ورمادها شقاء تعجز عن تصور العقل

ديست اليهود ومزقت المواثيق وأمتنت شرائع الله وشرائع الناس ولم تبق الأثرية السيف أفلا يحتمل أن توجه بعض هذه القوى يوماً ما نحو أميركا فتفتق إليها سهام الغزاة الطامعين في الاستعمار وإذا حدث ذلك فهل نحن من المنفعة في حوز حريز

كثيرون من قومنا لا يرون رأي القائلين بالتأهب للحرب حاسمين أن في الضعف قوة ولا يكسّر الأصلب وإن علينا أن ندعو الناس إلى التأخي لا أن نلبس عدة الحرب ونعز إلى ميدان القتال

لا شبهة أن الحرب مكروهة لذاتها ولا رغبة لنا فيها ولكن لا شبهة أيضاً أن الأمة التي لا تستطيع أن تمنع اعتداء الغير عليها في هذا الزمن يزول شأنها ولا يبقى لها مقام بين أمم الأرض

ومن لا يبدؤ عن حوض سلاحهم يهدم ومن لا يثق الشتم يشتم
 فأول ما يطلب منا لاقتنا ونوع البشرية أن نقي أنفسنا ونجعل أبناءنا قادرين على وقاية أنفسهم والاحتفاظ بما لهم من الحقوق والشرائع والقوانين

وعلى صحة أفراد الأمة وقوتهم تتوقف سلامتها وتتوقف استمرارها على السير في سبل الارتقاء فلننظر الآن إلى بعض الشواهد الدالة على أن قوتنا آخذة في الانحطاط حتى أن ذلك يلجئنا إلى أن نطلب من حكومتنا تعيين لجنة مؤلفة من خمسة عشر رجلاً من أكبر رجال العلم واشهرهم تبحث في أسباب ضعفنا ونشير بما يزيل هذه الأسباب ويبين القوة التي نحتاج إليها

ان التقدم في العلوم والفنون والاختراعات قد اراحنا من كثير من المشاغل العقلية
والمشاعب الجسدية فاعطانا الصحة والزخوة والرفاهة وسهل علينا اكتساب العلوم والفنون الى
حد لم يخطر على بال اسلافنا. وازال من سبيلنا كثيراً من المخاطر واطال اعمارنا وذلك كله
من الفوائد التي نعترف بها شاكرين

ولكن المشاغل والمشاعب تقصت من بعض الوجوه وزادت من غيرها وعمراننا لم يقتصر
على جلب المنافع بل جلب ايضاً بعض المضار لانه عودنا عادات تنضي الى المخاطرة والمجازفة
وضعف الاجسام

الا ان البعض ينظرون الى المنافع ولا ينتبهون للمضار فاذا رأوا قلة الوفيات وزيادة
توسط العمر حسبوا ان الامة آخذة في التوسع و قوة ولكن لم انصروا نظرم لوجسود ان
قلة الوفيات ناتجة كلها تقريباً من قلة وفيات الصغار وهو لا يمكن ان يكونوا يموتون بامراض عارضة
تعرض لهم فتلك وفياتهم مقاومة هذه الامراض لا بزيادة في قوة بيتهم فكأننا قلنا وفياتنا
لا بتقوية اجسامنا بل بتجنب بعض اسباب الموت

اننا نياحي بما نفاء من النسي الوافر واسباب الراحة الناتجة عن تسهيل الانتقال والاعتماد
على الآلات في عمل الاعمال . ولكننا انظرنا في ذلك فتبع عن افراطنا ان زادت مشاغلتنا
وصرنا نحاول ان نعمل كل اعمال الحياة ونجمع كل مسراتها في سنين قليلة فنفرط في
الاكل والشرب واللعب كما نفرط في العمل فزاد ضعف الابدان منا وزادت مطردة

ثم ان شدة اعتماد افرادنا على انفسهم قوت فيهم الاثرة والالانية فصار الواحد منهم
لا ينظر الى الامور الا حيث تأول الى راحته ورفاهته فداس القيود والقوانين التي تقيد
حرية الشخصية ولو كانت من قوانين الصحة . ومن استقل بنفسه ولم يرب الأيها يطل
الاهتمام بامته وحسب انه غير مدين لاجد بشيء فيخشى ان تطلب بلادته في ساعة الشدة
ليدافع عنها فلا تجد منه معيناً لانه فقد عاطفة الاجتماع والنعرة القويمة وصار همه كله
موجهاً الى راحته ورفاهته فما فائدة الامة من رجل مثل هذا

والناس الذين هذا شأنهم هم الذين يكثرون فيهم الانتحار او قتل الغير لان قيمة الحياة
زهيدة في عيونهم

وعما يجب ان لا ننفي عنه ان تقاينا في عدم اضاءة الوقت جعلنا شديدي الاهتمام
ضعيفي الاجسام لان الذي يخاف ان يضيع دقيقة من وقته يطل المشي والحركة فصرنا كنا

تسرع في سيرنا ونفجس في أعمالنا واقوالنا وابطلنا أساليب المعاشرة والمفاكة القديمة وابطلنا معها التبصر وإعمال الفكر ومسرنا نوجز في كل شيء ونبدي احكامنا بأسرع ما يمكن ونملكنا منكرة الضمير والحدة فاثرت في سوازتنا العقلية وهذا سبب ما نراه من ازدياد التهييج العصبي ولا بد من انت يوتر هذا التهييج في أعضاء الجسم الرئيسة كالقلب والشرابين والكلبيين ولا سيما في المجموع العصبي كله فكيف يقوى اناس اصيروا بهذه الافات على دفع اعدائهم والندود عن حوضهم

وقد كان لتقليل الاعمال الجسدية اثر سيئ في حياة الامة فان الملايين منا ولدوا من آباء عاشوا عيشة خلوية صحيحة لكنهم لم ينشغوا بخطوات والديهم بل اتاموا في المكتاب والمخازن والمعامل حيث لا سبيل لاجهاد اجسادهم ولا لترويضها ولا لتشغيل عقولهم . وقد قل العمل البدني حتى في الارياض فكانت نتيجة ذلك كله ضعف الابدان وتعرضها للأمراض وميزداد هذا الضعف وريداً وريداً بازدياد المكتشفات والمخترعات التي يختصر بها الوقت ويغنى بها عن التعب

اذا دُعي الناس ليجاربروا يدافعوا عن وطنهم قائل ما يطلب منهم ان يكونوا اصحاء اقوياء ولذلك ينتقون انتقاء ويرفض كل من كان ضعيفاً منهم ويطلب من القوي ان يتولى الدفاع عن الضعيف ولكن نظامنا الصناعي آل الى اضعاف ابداننا كلها في الولايات المتحدة ٢٨ مليوناً منهم بين ١٨ و ٦٠ وثمانية ملايين ونصف مليون منهم مصابون بامراض في أعضائهم الرئيسة فعلاً او ظهرت فيهم بعض اعراضها ولا يحتمل ان نتوقف هذه الامراض او نشفى الا اذا جروا على قوانين الصحة في معيشتهم . ومعلوم اننا اذا نظمنا جيشاً كبيراً للدفاع عن الوطن وجب ان ننظم من هذه الطائفة طائفة العمال ومن اقر دأهم لا من خدمتهم واساليب الحرب الحالية تستلزم ان يكون الجندي على تمام القوة البدنية والعصبية فكيف يصلح لها رجال القوا التعمود والسكون ولم يمتروا قط على تجشم المشاق أخشع في الصيف الماعصي جماعة من اهل بي سبرج ليسيرو سير الجنود نوصف بعضهم ذلك السير قال

« مسرنا سيراً حثيثاً مسافة اميال ودينا على الارض كما يفعل الجنود في ميدان القتال الى ان أصبنا بالدوار من شدة الاعياء . فان من يزحف على بطنه مسافة ميل او يمشي حاملاً ٣٨ رطلاً وهو يطلق بندقيته ثقلها ثمانية ارطال بعد ان يكون قد قطع مسافة طويلة لا يكون عمله الا شاقاً ولو لم تلجئ التقابل فوق رأسه

«والاعتماد هنا على القوة البدنية وقد ثبت لنا حينئذ أن هذه القوة تنقصا كامة فإن جماعت كانت مستفاعة من انصار عين ولاعي الكرة والصولات وكرة القدم والاساورة صيادي الوحوش الضارية واشتالهم وقد مررت على الحركات العسكرية شهراً كاملاً ومع ذلك لم تستطع ان تسير كلها أكثر من عشرة أميال ولكن الفرقة الثلاثين من الجيش النظامي سارت حينئذ ٢٢ ميلاً ووصلت وموسيقاها تعزف ولسان حالها يقول هكذا يكون الرجال»

فإن كان الرجال الأشداء الذين تطوعوا وقربوا شهراً كاملاً لم يستطيعوا ان يجاروا الجيش النظامي بوجه من الوجوه فكيف من الزمن يلزم لتمرين عامة السكان الضعاف الابدان على مجاراة الجيوش النظامية ومجاربتها

واساليب المعيشة الحالية قد اضعفت اعضاءنا الرئيسة القلب والشرابين والكيتين واعضاء الغضف . فكثرت الرفيات الناتجة من ضعف هذه الاعضاء وهذا يدل على أن الضعف اخذ يستولي على الامة كلها ولا يد من المبادرة الى مقاومت

وقد قل عدد المواليد ولكن ما كبناه بتقليل موت الاطفال لا يوازي ما خسره من بقلة المواليد . واقرى اسباب هذه القلة الانحجام عن الزواج فقد ظهر بالاحصاء الاخير ان عندنا ٧ مليوناً في سن الزواج من الرجال والنساء وهم غير متزوجين فيجب الاهتمام بذلك وبكل ما يصلح النسل

ثم خلص الخطيب ما ذكره في هذه الخطبة وما لم يذكره فيها من الدلائل الدالة على ضعف الامة الاميركية ناظراً الى غرض واحد وهو المبادرة الى تلافي هذا الضعف وتقوية الامة لا لكي تبش عيشة هائلة مطمئة ولا لكي تزيد راحتها ورفادتها ولا لكي تكون قدوة لام الارض في اجراء العدل والانصاف بل لكي تستطيع ان تقهر غيرها اذا حاول الاعتداء عليها

بلاد يزيد سكانها الآن على ستة مليون من النفوس وهم من اغنى الناس واعلمهم وامهرهم يقف رئيس جمعية علمية فيهم ويخطب خطبة طويلة مفادها التأمب للحرب

لا حول ولا قوة الا بالله امين خطب رؤساء الجامع العلمية التي لم تكن تشير الى الحرب بكلمة بل كانت تدور حول ابعاد التجوم وتسلسل الحيوانات وقوة قوى العقل وتحمل قوى الطبيعة ونشوء الاديان وتواريخ الامم وعادات الشعوب وعوادي الادواء واساليب الشفاء ووسائل الانتقال وجواهر المادة ونظام الكون

اين خطب مؤتمرات السلام التي كانت ثدينا ليوم نزول فيه الحروب وتقطع الخصومات
ويفصل في كل خلاف بين الامم بالتحكيم الى ان يستولي الاخاء العام على نوع الانسان
اين مواعظ الكنائس والمعايد التي كانت تعلم الانسان ان يحب قريته كنفسه وان الناس
كلهم اخوة من دم واحد ويجب ان يعامل كل احد غيره كما يريد غيره ان يعامله
اين تعاليم الحكماء والفلاسفة ومشرعي الاديان - ماذا اصاب نوع الانسان في هذا
العام والذي قبله - ماذا فعلت المانيا بمقول الناس - اكان كل الفضلاء في العصر الماضي
والصور الغائرة منافقين مختلين يسطرون طلاء كاذباً على نفوس وحشية ويلبسون ثياب
الحملان ويواظبون ذئاب خاطفة - معاذ الله - ولكن ويا معدياً توأدت في المانيا وجنونا مطبقاناً
فيها وترعرع وانتشر منها الى كل اقطار المسكونة كما ينتشر الطاعون او كما تنتشر بعض انواع
الجنون - ولا بد من ان يبقى الناس من سكوتهم ويروا ما فعلوا بعضهم بعض فيجذبوا انهم
يتقانون على عرض فان وان غابة ما يصلون اليه ويبقى لم اشبار من الارض يصطحبون فيها

(١) الانسان ازاء المدنية

ايها السادة

عندما وقفت هذا الموقف منذ خمس سنوات ما كنت اظن انني ساعود اليه اليوم ولكن
الجمعية الكريمة رضيت عني على ما يظهر فلم تنس دعوتي الى حفلاتها التالية عاماً بعد عام ولم
تبرح حتى اضطررتني الى المنسوع ايضاً هذه المرة فعدت اليها شاكياً منها شاكراً لها - بل كيف
اشكو منها ولقد مررت في الشوق اليها واليكم يا كرام طنطا بنجست اشهد عن كثير فلاحها واطهر
اعجابي بشبابها ومع الاسف العظيم ان آمالي لم تتحقق تلك الآمال التي عقدتها في خطابي السابق
ان تكون هذه الجمعية مدرسة للشرقي يتعلم فيها قيمة الاتحاد فيشبه بها - فقد مررت السنوات
كالحلم وليس لهذه الجمعية اخوات في القطر المصري تشاء مثلاً للاحسان فتجتمع تحت لوائها
من كل عقيدة ويمشي فيها الناس جنباً الى جنب على اختلاف المذاهب والاديان ولم ارحق
الساعة في غير طنطا من تجرباً ان يظهر في هذا المظهر كأنه كتب على الشرقي ان يظل في
التقسام الى آخر الايام

(١) سطره انتفاها حضرة الدكتور غولا فندس في المحلة السيرة لمصلحة الاتحاد والاحرار السورية

في طنطا في ٢٠ مايو سنة ١٩١٦